تاريخ الاستلام: 2019/06/22 تاريخ القبول: 2019/08/05

مدينة محافظة أسرة محافظة

بين

المفهوم والواقع

Conservative city conservative family

between concept and reality

د.ليلى بوطمين

جامعة باتنة 2

ملخص:

ان تركيبة المجتمع الجزائري معقدة و مركبة فالتنوع الثقافي و التغيرات التي يشهدها العالم والتي مست جميع جوانب الحياة سواء كانت اقتصادية، سياسية واجتماعية قد أترث بشكل كبير على الجانب الثقافي وهو ما يقدم مجالا محفزا للباحثين لكشف الآليات و الميكانيزمات التي تحركه.

و بغرض إزالة الغموض وكشف كل ما هو ضمني بخصوص كثير من المفاهيم المتداولة داخل المجتمع الجزائري بل و استخدامها دون معرفة معناها و مدلولها.

بناءا عليه فان تقديرنا لأهمية الموضوع لاسيما وانه يتناول بالتحليل مؤسستين على غاية من الأهمية "المدينة و الأسرة"، شكل و يشكل إشكالية في البحث السوسيو-انثربولوجي إلا و هو مفهوم المحافظة

كلمات مفتاحيه: مدينة،أسرة، محافظة،عائلة، التغيير.

Abstract:

The composition of Algerian society is too complicated given several factors namely the cultural variety and the change that have affected all areas of life; economic, political, social and particularly the cultural aspect. The latter represents an important investigation field of researches in order to reveal the mechanisms of its functionary without dismissing the importance of the social aspect.

This article addresses the question of two major important institutions given their roles and place in Algerian society in this case; family, and life based on a concept so widely used in the social sciences –conservatism-the objective is the seek common sense about the namely conservative city, conservative family.

Keywords: Family; city; ayla; conservatism; change

المؤلف المرسل: د.ليلى بوطمين ،الإيميل:l.boutemmine@univ-batna2.dz

مقدمة

يقدم هذا المقال محاولة منا إلى تحليل بعض التسميات المتداولة بكثرة منها خاصة مدينة محافظة أو حتى تلك التسمية الأكثر استخداما و المتعلقة أساسا بالعائلة المحافظة تحديدا وقد يعلم البعض معناها كما وقد يستخدمها البعض الأخر عشوائيا أو تلقائيا دون ان يعي ما قد تحمله من معاني أحيانا مختلفة و متناقضة فهو بذلك يستخدمها ليشير بها إلى موقف معين.

هكذا فان استخدام تعاير مدينة محافظة أو حتى عائلة محافظة، قد يشير في اعتقادنا إلى مدى الارتباط الموجود بين التسميتين وهنا لنا ان نتساءل فيما إذا كانت كل مدينة محافظة (مع الالتزام بتحديد ما المقصود بالمحافظة وما قد يحمله المفهوم من مغالطات أو من سوء فهم) تضم عائلات محافظة فقط.

و عليه فان تقديرنا لأهمية هذا الموضوع، بل أهمية إزالة الغموض و الغطاء عنه لاعتقادنا بان عملية استخدامه في حد ذاتها قد تكون حسب تقديرنا عملية غير موضوعية و دون معرفة كاملة و دقيقة، أو تحكم موضوعي و عقلاني بالمفهوم في ذاته.

وبناءا عليه فان طبيعة الموضوع تدعونا إلى تبني مقاربة سوسيو انتربولوجية لتحليل موقع هاتين المؤسستين (العائلة و المدينة) ، و الدور الذي يمكن أن تلعباه في تثبيت و ترسيخ مجموعة من القيم الاجتماعية التي اترت فيما قبل وتؤثر اليوم على الممارسات الاجتماعية للعائلات الجزائرية ، سواء تعلق الأمر بالطقوس أو اللغة و غيرها .

انطلاقا من إن العائلة تعد فاعلا أساسيا في الإنتاج و إعادة الإنتاج وقد تعد أيضا فاعلا في التغيير أو المحافظة على الوضع الراهن بمعنى على ذات القيم و الممارسات وهي في هذه الحالة ترفض التغيير، بل و تقاومه هذا ما سنحاول اكتشافه.

2. حول أهمية المفهوم

لا تهتم الورقة المقدمة في واقع الأمر بالجانب النظري لتحديد المفاهيم بقدر ما تهتم بما هو عملي بمعنى محاولة نقل و تحليل الواقع واقع المدينة و العائلة في الكشف عن التغيرات التي طرأت على البنى الداخلية و الممارسات الاجتماعية لكلتا المؤسستين في محاولة منا للإجابة على التساؤل المطروح، و منه تحديد المعنى الواقعي والفعلي لمفهوم المحافظة.

يستخدم مفهوم المحافظة على العموم للإشارة إلى مدى تمسك المدينة ولا سيما العائلة الجزائرية بمنظومة قيم ثقافية وبهذا المعنى فالمفهوم يعد معيارا لتقييم السلوك على أساس مدى قبو ليته اجتماعيا .

إن المقصود من المفهوم هو مقاومة التغيير، و التشبث بما هو تقليدي لأنه يجسد الهوية الثقافية كما إن عدم الانفتاح و قبول نماذج ثقافية مغايرة، فد يعد خطرا و تهديدا بل و طمسا للهوية المحلية وقد يقدم هذا تفسيرا لوجود مدن أكثر تحضرا و تفتحا من مدن أخرى وبقاء هذه التسمية لصيقة بالمدن التي تبدي تمسكا بتقاليدها بل وترفض الاختلاط بالأخر و الاندماج في ثقافته.و عند هذا المستوى لنا أن نطرح تساؤل ، على مر هذه السنوات و ما عرفته المجتمعات من تغيرات على جميع المستويات، اقتصادية ، سياسية و ثقافية وكذا اجتماعية هل بقيت كل من المدينة و العائلة على هامش هذه التغيرات، أم أن تيار التغيير قد مسها و لو كان بشكل غير مباشر". وهو ما تحاول ايضا هذه الورقة اكتشافه.

ومن هذا المنطلق فان اهتمامنا ينصب بقدر كبير على الكشف عن مدى تأثر هاتين المؤسستين بسيرورة التحولات التي عرفتها ولازالت تعرفها الجزائر بمختلف مؤسساتها، لاسيما منها المدينة و العائلة في معرفة ما إذا لازال المفهوم المحافظة يحمل ذات الشدة و الالتزام في التطبيق و الصرامة في الممارسة أم على العكس من ذلك، فهناك ما يشير إلى وجود ليونة في الفعل تبدو من خلال الانفتاح النسبي الذي يمس بعض القرارات الحاسمة، هذه أسئلة وهناك أسئلة أخرى قد نطرحها فيما بعد لكننا لنخفي بان هنالك رغبة ذاتية و خاصة لاكتشاف واقع يعد واقعنا المحلي حتى وان كنا نخالفه الرأي في كثير من المواقف و الممارسات، هي بهذا المعنى تجربة جعلتنا نتموقع في موقع الباحث من جهة ،وفي موقع الفاعل من جهة أخرى، فالفضول العلمي قادنا إلى محاولة إزالة الغطاء عن الكثير من التصورات المتعلقة بتسميات مدينة محافظة بمقابل أخرى متفتحة وما يمكن ان يميز هذه المدن هو عائلاتها التي في غالبيتها تصنف بالمحافظة.

1.2 المدينة

انطلاقا من أن معرفة العالم لابد من أن تسبق تحوله، فان الحديث عن المدينة لا يمكن إن يحدث دون الإشارة إلى عامل التغير فلا يمكننا أن نزعم بأنها ثابتة ولم تمسها رياح التغيير، فالمدينة في الجزائر تتطور وفق متناقضات فهناك من الباحثين من يذهب إلى حد اعتبار أن هناك ما يطلق عليه بأزمة التمدن في الجزائر.

حيث يشير بعض الباحثين إلى إن مسالة التمدن تظهر المجتمع في أزمة متعددة الأبعاد هو في الواقع ،مجتمع يبحث عن نماذج تضمن استمرارية التقاليد وحسن التصرف، كما أن القطيعة مع ذات التقاليد تكون دائما عنيفة و مفاجئة في الذاكرة الجماعية.

ناهيك عن الثمثلات إذ تعد هذه الأخيرة من القضايا التي لا يمكن الإغفال عنها بخاصة عندما يتعلق الأمر بالممارسة الاجتماعية المرتبطة أساسا بالتقاليد هذه الأخيرة تعد مرجعيتها الأولى.

إن الوقوف كملاحظ داخل مجتمع محلي يختلف كثيرا عن مجتمعي الأصل الذي نشات و ترعرعت فيه ، لمدينة طالما عرفت بأصالتها وصنفت بالمحافظة لحفاظ أهلها و عائلاتها على كل ما يميز أصالتها ، تقاليدها و تاريخها الغني و الحافل، إنها عاصمة الاوراس وبلاد الشهداء ،مهد الثورة ، بلاد الامازيغ بلاد الأحرار، بلاد الشاوية كما يروق للبعض تسميتها ، نحاول من خلال اخذ مدينة باتنة كعينة من المدن التي عرفت ولازالت تعرف لحد تاريخ ليس ببعيد بتمسكها و محافظتها على تقاليدها و أعرافها، وهو ما يؤكده استمرار الكثير من الممارسات الاجتماعية التي لا تدع مجالا للشك من أن مدينة باتنة محافظة ولكن لن نؤكد ذلك مطلقا لان رياح التغيير قد مستها ،حيث من بين أولى المؤشرات التي تجعلنا نؤكد ذلك هو فن العمارة .

ولأننا عندما نتحدث عن المدينة نتحدث عن الهندسة المعمارية ،كونها تترجم تاريخ و حضارة المدينة بل و أيضا تقاليدها و نمط عيشها و الأكثر من ذلك هو مدى تقبلها للأخر تحديدا لثقافته، فالهندسة الداخلية للمنازل تتعدى ما هو ظاهرا و شكلا إلى تحديد للأدوار و تقسيما للفضاء، فلم يعد الحديث عن الدار "الحوش" بل أصبحت شققا و عمارات و لم تعد منازلا بسيطة و متواضعة تعكس نمط عيش بسيط و غير متطلب، بل نشاهد عمارات ضخمة و مباني عالية، منازل فخمة تعكس مدى اهتمام الناس بالمظاهر ،كما و تشير إلى مستوى حياة أكثر تمدنا و تحضرا و كما قد تشير أيضا إلى تقسيم مغاير للأدوار و توزيع مختلف للسلطة عما كان في السابق.

في عودة سريعة للوراء فان التحولات التي عرفتها الجزائر المرتبطة بمجمل السياسات التي انتهجتها النخبة الحاكمة غداة الاستقلال لاسيما منها السياسة التطوعية التي كانت ترمي إلى تسريع عجلة التحولات، وقد عرفت الجزائر جراء ذلك سياسة جديدة خصت عالم المدينة (الحضر) و الريف و كانت تحت أشكال مختلفة منها خاصة

- تسريع عمليات التصنيع
-الإصلاح الزراعي
- بناء القرى النموذجية الذي كان الهدف منها هو إدماج الفلاحين في نظام علاقات جديدة

بلاد الاوراس لم تكن بمنأى عن هذه التحولات، إذ عرفت سلسلة من التغيرات الاقتصادية و السوسيو- ثقافية و تغيرات مست أيضا تنظيم الفضاء الداخلي و هو ما يهمنا تحديدا ، و تجدر الإشارة عند هذا المستوى إلى ما اعتبرته بعض الدراسات السوسيولوجية في الجزائر و التي اهتمت تحديدا بمنطقة الاوراس على انه نموذج جديد من الحركية الاجتماعية و لكن كثيرا ما تفقد المدينة جراءه توازنها بخاصة ما يتعلق بوحدة وتماسك الجماعة. (K. Adel. 1995. Pp 43-48.) .

كما تضيف خديجة عادل إن المصلحة الأولى لسكان المدينة في هاته الظروف الجديدة متمركزة أساسا اتجاه الفضاءات التجارية فقد نقص الاهتمام بالزراعة بينما أصبح السكان مهتمون بالوظائف الإدارية و التجارية والتي تعد فضاء سلطة ، وهي بذلك تحل محل الفضاء التقليدي ،حتى المنزل الذي يعد فضاء تجري فيه كل الممارسات التقليدية من طريقة الأكل و ممارسة سلطة الرجل و إنتاج للمجتمع ألذكوري.

وبينما كان بناء المنزل التقليدي ناذرا ما يتم فيه استشارة النساء على العكس ما يحدث اليوم، فالمرأة المدبر و Op cit. (Kh. Adel .صاحبة الرأي بل و تتم استشارتها حتى في أدق التفاصيل)

إن هندسة المنازل من الداخل توحي بما لايدع مجالا للشك عن حضور محسوس و ملموس للمرأة ينعكس هذا الحضور في ديكور المنزل، ألوان جدرانه ، اثاثه ...وتعكس الألوان تفتحا في الدهنيات على أساس أنها أكثر جرأة ويعد ذلك من المؤشرات الدالة على قبول التغيير.

اننا نعلم جيدا من إن هندسة المنازل داخليا و خارجيا تعكس ثقافة مجتمع و تقاليده وهي بهذا المعنى صورة عاكسة للهوية ولا يقتصر الأمر على ذلك فحسب، فحتى طريقة الأكل و اللباس أيضا من العوامل المرتبطة بالهوية و إن كان مفهوم التغيير قد مس هذه الجوانب أيضا، فان ذلك لايعني بالضرورة انه قد تم التخلي عنها بصفة مطلقة، بل لازالت موجودة و تتوارثها الأجيال و تعمل على إعادة إنتاجها حتى تضمن استمراريتها و إن كان ذلك ليس بنفس الشدة، فالملاحظ انه لم يعود هناك سوى أقلية من الحرفيين المحليين يتواجدون على العموم في الإحياء الشعبية للمدينة أو بمحداة أسواقها و الذين يحاولون من خلال حرفتهم المحافظة على ما هو تقليدي و محلي.

بناءا على ما ذكر آنفا و من منطلق مدن محافظة، فالهندسة المعمارية للبنايات و المنازل تؤكد مما لا يدع مجالا للشك بان باتنة المدينة المحافظة قد قبلت التغيير والذي يتجلى على سبيل المثال في مطبخ عصري، غرف مختلفة تماما عن تلك التي عرفت بها منازل الامازيغ و غيرها من مظاهر التغيير .

وبالإضافة إلى كونه مؤشر على تشكل نمط حياة جديد و مغاير فانه في ذات الوقت يشير إلى بروز نمط عائلي حديث ،وهو ما سنحاول كشفه فيما بعد.

هكذا فان عمليات التصنيع فد عملت على تحقيق انقلاب كبير مس جميع نواحي الحياة نذكر منها بالأخص مصطلح العمل النسوي و دخول المرأة فضاءا لم يكن مسموحا لها فيما قبل ، بل ومساهمتها الفعالة في التغيير، وقد كان الخطاب السياسي و الاديولوجي أكثر دعما و تشجيعا للمرأة (ل.بوطمين. 2000 .ص 25) ليس لاقتحامها مجال العمل و انضمامها لفئة الأجراء فحسب، فقد سجلت قبل ذلك حضورا من خلال عمليات التمدرس ،و في هذا الصدد تشير فاطمة مرنيسي إلى التأكيد من أن الآجر المدفوع للعاملة يعد ثورة في F.Mernissi.1980.PP.58-64) الدهنيات...(

بناءا عليه فان ما سبق ذكره يسجل أول خطوة في اتجاه الحداثة و العصرنة و كانت أول العوامل التي ساعدت في تغيير مفهوم المحافظة ، فتمدرس النساء و دخولهن باختلاف مستوياتهن التعليمية وأصولهن الاجتماعية مجال العمل مما أدى إلي اندماج المدينة و تكيفها مع عقلنة مفروضة من طرف نموذج متحضر و منفتح، مختلف تماما عن ذلك المرتبط بسلوكات سوسيولوجية تقليدية و مرتبط بالأساس بالهوية.

لا يمكننا بأي حال نفي أهمية عوامل أخرى غير تلك المتعلقة بإرادة النظام من خلال نخبه الحاكمة و ايديولوجية الدولة أن نهمل أهمية الدور الفعال الذي لعبته وسائل الاتصال و تكنولوجيات الإعلام في نشر الوعي الجمعي و التحفيز في معرفة ثقافة الأخر ، ولنا أن نشير إلى التأثير القوي الذي تمارسه شبكات التواصل الاجتماعي بخصوص هذه المسالة تحديدا .

إن منطقة الاوراس بكل ما تحمله هذه التسمية من رموز و معاني ترتبط بشكل أساسي بالصرامة و الصلابة في التعامل و هو ما يعد في ذات الوقت احد الميزات الشخصية المتعلقة تحديدا بالطباع الحادة التي تعد ميزة الشاوية عموما بقدر ما كشفت الكثير من المتغيرات و العوامل على وجود ليونة تعكسها كثير من المظاهر التي تشير جليا إلى قبول و انفتاح هذه المدينة على اطر ثقافية مختلفة عن الأصل و لو كان ذلك يتم بحذر وحيطة شديدين ولكن يؤكد لامحال الانفتاح على الأخر ،و لتفسير مثل هذا الموقف لن يتم إلا بالرجوع إلى خصائص عامة منها ،المستوى التعليمي وكذا المناصب المهنية السامية الاحتكاك بأجناس أخرى بمعنى مغاير التعرف على ثقافات اخرى

التي يحتلها الجيل الجديد من الشاوية ، الدراسة في الخارج ،ناهيك عن عامل اخر هو الزواج، فالكثير من ابناء الشاوية يرفضون الزواج من الاقارب كما كان معروفا بل واصبح مفروض،ا فهذا العامل في حد ذاته يعد ثورة على القديم . (l.Boutamine 2018,p 30).

اذا كانت المدينة بتاريخها و أصالتها وتشبتها بماضيها وشماخة جبالها وصلابة و صرامة سكانها أصبحت أكثر ليونة و اقل محافظة من السابق ،فكيف هو الحال بالنسبة للعائلة الشاوية التي تعد أولى المؤسسات و أهمها داخل المجتمع الشاوي.

2.2 الاسرة

لقد شكل المفهوم إشكالية وحتى وان كان الهدف هنا بعيدا عن أي محاولة منا إلى إزالة الغموض الذي يكتسيه المفهوم ، أو حتى عرض مجمل المقاربات التي تتعلق به مع ذلك فانه وبكل موضوعية ماقدمه العياشي عنصر في مقاله الموسوم "الأسرة في الوطن العربي من الأبوية إلى الشراكة "بخصوص المفهوم قد تجاوز كل ما هو سطحي و عام إلى ما يمكن أن نعتبره بالتحليل السوسيولوجي العميق و المعمق و الصائب، لأنه استطاع أن يزيل الغموض واللبس في الاستخدام، ومقاربته بل ومقارنته بمفهوم الأسرة مع تعليل استخدام مفهوم العائلة أو حتى لما نميل اليوم أكثر إلى استخدام مفهوم الأسرة" ...لعل أكثر ما يثير الانتباه في عدد كبير من الدراسات العربية حول الأسرة هو استعمالها عبر التمييز لمفهومي الأسرة و العائلة وكأنهما يغطيان نفس الحقل الدلالي و يستوعبان نفس الحقائق الاجتماعية فيما يميل البعض إلى استعمال احد المفهومين بشكل حصري دون توضيح دلالة المفهوم.(العياشي عنصر. 2008ص 23).

مهما يكن فان تحديد دلالة المفهوم لا تكون بمعزل عن الواقع الذي يتعامل معه لذلك فان الخط الفاصل بين مفهوم الأسرة و العائلة ليس دوما واضحا في أذهان الباحثين وهذه حقيقة تعكس مدى تعقد الواقع وتعدد نماذج التنظيم الاجتماعي وأنماط القرابة

بالنسبة لبورديو الأسرة هي مجموع الإفراد تربط بينهم القرابة أو النسب (الزواج) أو المعاشرة ، بمعنى العيش تحت سقف واحد، كما يذهب بعض الاثنوميتودولوجيون إلي حد اعتبار أن المفهوم في ذاته وهم ، و مرجعيتهم في ذلك الواقع الاجتماعي الذي يخترع هذه التسميات ، مع ذلك فهم يعتبرون أن الأسرة هي مبدأ تكوين الواقع (, الاجتماعي P Bourdieu., 1994 , p 18)

إذا كانت الأسرة كما يقول ب.بورديو وهما اجتماعيا فإنها مع ذلك وهم يتمتع بأساس متين في واقع الأفراد والمجتمع لأنها ببساطة احد الأبنية الاجتماعية الأساسية التي تتشكل من خلال عملية الإنتاج الاجتماعي ويعاد إنتاجها بواسطة استراتيجيات إعادة الإنتاج التي تعطي للنظام الاجتماعي طابع الاستقرار و الاستمرارية.

كما يتم بناء ذات التسمية (الأسرة) من خلال المعجم الذي ينقل مضمونه العالم الاجتماعي هكذا على حد الاعتقاد الاتنوميثودولوجي ، فإننا نتعلم هذه التسميات ثم نتبناها و مرجعيتنا الواقع في حين في الأساس هي نسج الوهم. و يضيف ب. بورديو إننا نميل إلى الاعتقاد أن الأسرة طبيعية لأنها توحي إلى الاعتقاد بأنها منذ كانت موجودة وليست اختراعا حديثا.

أما فيما يتعلق بمفهوم الشعور الأسري وما يميز هذا الأخير كونه سريع الزوال ما نلاحظه و ما لايدع مجالا للشك في أن مفهوم الأسرة قد شكل معضلة على المستوى المنهجي و العملي و كذا النظري وهو ما عمدنا توضيحه في بداية هذا الجزء.

إذا سلمنا بان المفهوم هو بكل بساطة بناء لفظي يتعلق الأمر هنا ب" تحليل الثمثلات التي يحملها الأشخاص فيما يقصدونه بالأسرة " (ب.بورديو) بعض الاتنوميثودولوجيون يرون في الخطاب حول العائلة إيديولوجية سياسية توحي بمظهر يتناسب و يحسن تقييم العلاقات الاجتماعية التي تدعم ذات الخطاب .

لو افترضنا بان ما سبق ذكره صحيح ،بان العائلة مبدأ تكوين الواقع الاجتماعي لا بد من التذكير أيضا أن مبدأ التكوين الذي يعد نقطة اشتراك الموضوع الاجتماعي، بتعبير مغاير يعد مبدأ رؤية و تقسيم مشترك ، قانون موجود أو بالاحرى نعتقد في وجوده ،لأنه غرس في أذهاننا من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية التي أساسا عملت و تعمل في محيط هو في الواقع منظم على أساس التقسيم العائلي.

و يعتبر ب .بورديو إن مبدأ البناء هو ذاته احد عناصر التطبع وبالنسبة له هي بنية ذهنية ،غرست داخل كل الأدمغة الاجتماعية بطريقة فردا نية وجماعية في أن واحد ، وهي أساس تكوين الإحساس الجمعي، وتشكل إجماع على التواجد ،لأنها المعنى الجمعي، "إذا تعلق الأمر بالعالم الاجتماعي تشكل الكلمات أشياء،P.Bourdieu.1994, op.cité p1) 2 (الشائع مثلا مقبول من الكل..". فالاعتقاد بناءا عليه فان الأسرة تعد مبدأ البناء، ملازم للأفراد باعتبارهم جماعة من جهة و متعال بالنسبة لهم من جهة أخرى ، انه متعال بمفهوم كانط إذا اعتقدنا أن العائلة ليست إلا كلمة، فإنها تتعلق بكلمة أمر ، فئة، مبدأ جماعي لبناء الواقع الجماعي، نستطيع أن نقول من دون أي تناقض في أن واحد أن الوقائع الاجتماعية هي وهم اجتماعي للبناء الاجتماعي، و تتواجد واقعيا بقدر ما يعترف بها جماعيا.

وفي نفس الصدد يضيف العياشي عنصر أن الأسرة تشكل حجر الزاوية في سيرورة إعادة الإنتاج الاجتماعي ليس لكونها احدى المؤسسات الاجتماعية الرئيسية، التي تمثل حقلا لصياغة و بلورة علاقات القوة بين الإفراد و الجماعات لكونها فضاء تتحقق بواسطته استراتيجيات إعادة الإنتاج الاجتماعي، من خلال نمطين أساسيين هما نمط إعادة الإنتاج العائلي ونمط إعادة الإنتاج المدرسي. (العياشي عنصر 2008.مرجع سابق)

بناءا على ما سبق ذكره فان الفكرة الأساسية التي يمكن لنا استنتاجها من هذه الحلقة هي ما أطلق عليه ب بورديو بإعادة إنتاج الأمر الاجتماعي الاتفاق الشبه كامل بين الفئات ،على أن العائلة طبيعية و تمثل مكان لإعادة الإنتاج ليس البيولوجي فحسب ،و إنما الرمزي و الاجتماعي أيضا ،كما تعمل على المحافظة على وحدتها عن طريق النقل ،ومن خلاله ،ويعتبر بورديو أن الأسرة موضوع رئيسي لاستراتيجيات إعادة الإنتاج ويبدو ذلك أكثر وضوحا مع نقل اللقب العائلي و هو في ذاته عامل رئيسي لرأس المال الرمزي.

شكلت الأسرة و بامتياز مكان للاندماج البسيكولوجي و الاجتماعي للأفراد ،و من ثم المجتمع، ونظرا لأهمية هذه المؤسسة يمكن دراستها انطلاقا من مستويات عديدة باعتبارها تنظيم اقتصادي، سياسي، عاطفي واجتماعي كل مستوى من هذه المستويات يسمح بفهم و بطريقة مختلفة لكن متكاملة عملها (العائلة) كبنية حيوية و دينامية ، ويعتبر ب.بورديو العائلة بأنها"... مكان لخلق الحياة بمعنى لإنتاج النوع و مركز تعلم الفاعل المنظم لعمليات إعادة الإنتاج بقيامها بوظائف الإدماج ، وتقوم الأسرة بدور الإقصاء من خلال استراتيجيات الزواج P).(53 Bourdieu . 1988, p الرابط الاجتماعي، إذا فهي مكان لنضج الأفراد..."

و لأنها بنية مركبة و معقدة يقوم الأفراد الذين يشكلونها ، بالمساهمة اعتمادا على مواقعهم، مصدر و مورد لها من خلال أدوارهم ، و لان الخطابات لم تكن واحدة و موحدة حول هذه المؤسسة، إلا أنها تركز في مضمونها على هرمية الأفراد بداخلها ،كما تقوم بتحديد الحقوق والواجبات والمحظورات أيضا، وعلاقات السلطة بداخلها و .(S.Khodja. 1991, p80) التي تحكم الأفراد من خلال النوع و السن ودرجة القرابة على الرغم من ذلك فان الأسرة ليست بناءا ثابتا و مستقرا فإنها تتأثر و تتغير تبعا للتغيرات التي تمس محيطها الخارجي لاسيما إنتاج و توزيع الثروات، إنتاج و إعادة إنتاج قيم حديثة من خلال التمدرس ووسائل الاعلام و الاتصال و الانفتاح على نماذج جديدة و حديثة و معاصرة . لكن كل ذلك لم يحدث بسهولة كما يمكن اعتقاده فقد واجهت التحولات التي طرأت على بنية العائلة نزاعات عنيفة ،كون هذه التحولات تعارض مرجعيات الهوية و النسق المعياري وكذا القيمي المرتبط بها. بتعبير مغاير فهي تهدد المنظومة القيمية و استمرار النمط القيمي السائد.

بالنسبة لبيار بورديو إن عملية إعادة الإنتاج تخضع في نهاية التحليل للأسرة وفي ذات السياق يعتقد العياشي عنصر "انه من الأجدر الحديث عن إدارة عائلية مطلقة، أو كاملة لعملية إعادة الإنتاج في الحالة الأولى و إدارة عائلية تستخدم فيها المدرسة كمؤسسة وسيطة في الحالة الثانية ،لان الدور الذي تقوم به المدرسة في إعادة الإنتاج يعتمد إلى حد كبير على الدور الذي تؤديه الأسرة في نقل رأس المال الثقافي مما يعني استمرار الأسرة في المحافظة على منطقها المستقل الذي يسمح لها بمراكمة رأس المال بمختلف أنواعه (المادي الثقافي و الاجتماعي) وتوظيفه في عمليات تراكم و نقل التراث العائلي بين الأجيال (العياشي عنصر.2008.مرجع سابق)

ولتوضيح أكثر للفكرة يمكن الاستناد إلى مثال حيث يمنح التقليد السلطة في اتخاذ القرارات للأشخاص الأكبر سنا و الشباب ملزمون بالطاعة و الخضوع ولا يمكن للمرأة مثلا النفوذ إلى هذه السلطة إلا بعد بلوغ سن محددة بل و بعد أن تصبح جدة أو حماة لتقوم بعدها بتسيير كل الأمور المتعلقة بزواج الأبناء و الأحفاد. و نتوقف هنا لنشير انه كثيرا ما يحدث تمرد و معارضة من قبل هاته النسوة اللواتي لايقبلن بأية حال مثل هذا الخضوع و الهيمنة و هو ما يفسر على العموم سبب النزاعات الداخلية، فالنساء من الجيل الأخر تمردن و بقوة على النظام التقليدي و هو ما تؤكده الدراسات الحديثة حول العائلة الجزائرية عموما ،والاوراسية تحديدا ،كونها اعتبرت محافظة و بامتياز.(l.Boutamine 2018,p 30).

لقد أنتجت سيرورة التحول الاقتصادي و السياسي وكذا الاجتماعي مجتمع حديث و مغاير لسابقه و قد سجل بذلك المجتمع الجزائري قطيعة مع نظريه التقليدي ولو على المستوى النظري، ويعمل النمط الحديث على تحديد مغاير للأدوار و مواقع الأفراد وذا العلاقات بين الجماعات والفاعلين الاجتماعيين من خلال سن تشريع جديد . كما وقد ساعدت عمليات التصنيع والتمدين (التحضر) والتمدرس ، باعتبارها تشكل جميعها عوامل ساهمت بشكل كبير في التحولات التي عرفتها الأسرة الجزائرية بل والمجتمع عامة .

ولفهم أكثر تحديدا لمنهجية البناء و التشكيل ، يمكن الرجوع إلى أول مؤشرات التغيير و قبول أنماط ثقافية أكثر انفتاحا و اقل محافظة ،هو مؤشر زواج الأقارب (رابط الدم) ، حيث بدى واضحا التخلي عن هذا الشرط في الزواج الذي كان يلزم الشاب من الزواج من قريبته ، و الملاحظ أن حتى العائلات التي كانت تعرف بتشددها في هذه المسالة قد أصبح أبناءها يتزوجون من بنات لاتربطهم بهن أية صلة قرابة، ويعد هذا من العوامل التي ساعدت كثيرا على الانفتاح، و يقدم ذات العامل أحسن تفسير للتغيرات التي عرفتها العائلة بخاصة إزاء هذا الموضوع الذي شكل في حد ذاته الطريق الممهد لتغيرات أخرى مست بدورها العديد من المواقف والممارسات الاجتماعية. و من جانب أخر، يعد مثل هذا الموقف تعدي صريح و مباشر لمنطق الجماعة الذي طالما سيطر وهيمن لمدة طويلة من الزمن إذ لم يكن من الهين أن يتم تجاوزه ،فالبنات حسب (S.Khodja.1991op.cit) لا يتزوجن , إلا من العائلة و تحديدا مع ابن العم. سعاد خوجة ومثل هذا الموقف كانت له عواقبه المباشرة على العلاقات رجال / نساء و السلوكات المفروضة و المرفوضة مثل اقتحام الرجل لفضاء مخصص للنساء فقط، بحيث يجب عليه إصدار أصوات يعلن بها قدومه ، و لكي يفسح له بعدها المجال للدخول، و غيرها من السلوكات الأخرى سواء تعلق الأمر بالرجال أو النساء ،كما أشار إلى ذلك(P. Bourdieu. 1972,. P 79) ب.بورديو.

عند الحديث عن السلوكات و المواقف لابد من الإشارة إلى خصوصية التركيبة المعقدة للعائلة الامازيغية عموما غير إننا لا ننفي أنها تاثرث بجملة من التغيرات المفروضة تارة و المختارة و المقبولة عن طواعية تارة أخرى، ولدى تبدو أهمية الإشارة إلى تنوع حتى لا نقول تناقض في المواقف، ففي الوقت الذي تبدي فيه الأسرة قبولا و ليونة فإنها في ذات الوقت تكشف عن تحفظ، فهناك مسائل لا يمكن تغييرها وهي بهذا المعنى ترفض المساس بها أو تجاوزها ، وهي على العموم مسائل تتعلق بالعرف أو حتى بعض التقاليد التي تبقى راسخة مهما تغيرت الأزمنة.

و يمكن ان نشير هنا إلى الإعراس و الأفراح في منطقة الاوراس التي تتميز عن غيرها من المناطق الأخرى .

فالاسرة في هذه المنطقة مهما بلغ مستوى أبنائها الثقافي و كذا الاجتماعي، فحفلات الزفاف و الختان و غيرها تعكس مدى تمسك الأسرة برموزها حتى وان ادخل بعض التغيير، فالطريقة التقليدية في الاحتفال لازالت مسيطرة و تعكسها الفرق الموسيقية التقليدية فرق البارود و الرحابة إلى جانب الأكلات التقليدية و المعروفة في المنطقة كل ذلك يرمز لثقافة هذا المجتمع تاريخه و حضارته، و يترجم في ذات الوقت إعادة الإنتاج التفافي .

عند هذا المستوى نتوقف قليلا للحديث عن الختان تحديدا إذ يرمز هذا الأخير عند الامازيغ تحديدا، إلى ترقية اجتماعية للذكر بخلاف المرأة التي لا يمكنها إن تتمتع بذات الترقية ،فهو يعد كواحد من الطقوس التي تسمح بمرور الطفل من العالم و الفضاء النسائي إلى الفضاء الرجالي ألذكوري.

و يرمز إلى ذلك من خلال الاحتفالات التي تقام لأجلها بخاصة و أن الجماعة تولي اهتماما خاصا لهذا الحدث و هو ما يعكس ثبات و استمرارية النسق الرمزي و تركيبة النسق القيمي الذي يميز المجتمع التقليدي، فالمجتمع الامازيغي اليوم و إن كان يحاول أن يثبت عصرنة و انفتاح، فان ذلك ظاهريا فحسب لان في باطنه لازال محافظا فالأنساق القيمية و المعايير الاجتماعية ذاتها، بالإضافة إلى رموز المجتمع التي تبدو ثابتة ولا تتغير.

ويمكننا إضافة نقطة أخرى على غاية من الأهمية قد تعيدنا إلى مسالة الضمير الجمعي لاميل دور كايم بمعنى أسبقية الجماعة على الفرد ، فالفر دانية لا يعترف بها داخل المجتمع الامازيغي ومن ثم داخل الأسرة كما وان مفهوم الجماعة أو تجماعت هو اكبر دليل على ذلك، فكل القضايا و القرارات الحاسمة للأسرة هي من اختصاص الجماعة التي تقرر ما يمكن و ما يجب على الفرد القيام به في حين لا تؤخذ القرارات الفردية بعين الاعتبار بل اكثر من ذلك، فالفرد لا يخطو خطوة واحدة إلا بالرجوع إلى الجماعة.

إن الجماعة هي أساس العائلة، فمجموع القواعد و المعايير المؤسسة اجتماعيا تنظم السلوك داخل وخارج العائلة إننا بهذا المعنى نواجه حقيقة اجتماعية مفادها نظام يقوم على (P.Bourdieu. 1972, op.cité. pp102)أساس تفضيل الجماعة على الفرد.

ومن ثم تبرز مفاهيم مثل مفهوم الشرف والنيف والحرمة، وغيرها من المفاهيم الأخرى السائدة و المتداولة داخل العائلة المحافظة لحد اليوم و إن كان ليس بذات الحدة و التعصب ، وتداولها الأجيال باعتبارها موروث جمعي بل وتتم عملية إعادة إنتاجها على اعتبار أنها موروث جمعي.

لا يمكننا بأي حال نفي عامل أساسي و مفسر لتلك الليونة التي اتسمت بها العائلة المحافظة في قبول نماذج تفكير و سلوك مغايرة و أنماط ثقافية غريبة عنها، ولكن تقبلها لم يكن بالسهولة كما يمكن أن يعتقد البعض ولكن بمقاومة و تحفظ أحيانا و بقبول مشروط أحيانا أخرى .

لعل أهم العوامل التي كنا قد اشرنا إليها سابقا و تعد من أهم المتغيرات التي تقف وراء الانفتاح و قبول نماذج و أنماط ثقافية مغايرة، والليونة في التعامل معها و قبولها ،هو عامل الزواج خارج الدائرة المغلقة للوالدية و لرابط الدم فالملاحظ أن كثير من شباب العائلات المحافظة بل وحتى بناتهن تزوجوا من أشخاص لاتربطهم بهم أي نوع من القرابة .وبهذا الخصوص قدم بيار بورديو مثالا على غاية من الأهمية يتعلق بالتمييز بين القرابة الرسمية (P.Bourdieu.1972..Ibid) الشكلية أو الوظيفية التي تقوم داخل ذات الجماعة بمناسبة طلب الزواج .

و قد مثل الزواج احد الشروط التي مهدت ليس فقط لقبول أنماط ثقافية مغايرة فحسب و إنما الاندماج فيها أيضا. و يمكن أن نضيف أمثلة أخرى ترتبط بطريقة الأكل و الجلوس على المائدة ، ولكون طريقة الأكل ثقافة على حد تعبير مالينوفسكي ، حيث في الماضي كان الرجال لا يجتمعون على طاولة أكل واحدة مع النساء في الرجوع إلى مسالة تقسيم الفضاء، بالإضافة إلي أن اجتماع الرجال أو حتى النساء حول طبق واحد يأكل منه الجميع لما لذلك من دلالة رمزية لدى الامازيغ ،كون ذلك يضمن حسب اعتقادهم استمرار التضامن و تماسك الجماعة . و هو اعتقاد راسخ عند الشاوية تحديدا، بل وحتى لازال يشكل معتقد راسخ عند الفئة المثقفة منهم. لعل أهم الأسباب المفسرة لذلك هو انفجار العائلة النووية ،و الذي أتاح المجال لظهور أشكال و أنماط عائلية (S.Khodja. 1991,Ibid) جديدة و مختلفة أخرى. انظر بهذا الخصوص سعاد خوجة

تبدو الأهمية إلى الإشارة انه اليوم و بفعل عوامل عديدة لاسيما منها توسع الحضر، التمدرس و العمل المأجور جعلنا نقف إمام نماذج مختلفة من الأسرة ،بخاصة وان الزوج يتمتع بأكثر استقلالية لاسيما و أن تقاسم المنزل العائلي لم يعد ضروري أو شرط أساسي لتكوين الزوج .

إن عوامل مثل الفئة السوسيو مهنية ،المستوى التعليمي، بالإضافة إلى انفتاح المدينة ،و ما تقدمه من ظروف حياة عصرية مغرية أترث لا محال على الذهنيات السائدة ،كما خلقت قطيعة مع النماذج القديمة و التقليدية.

. خاتمة:

لا يمكننا أن نحكم بالمطلق على زوال تسميات مدينة محافظة و أسرة محافظة ،حتى و إن كان الواقع المحلي يثبت عكس ذلك، فان هذه التسميات لازالت موجودة في أذهاننا و نستعملها عادة للتمييز بين العائلات أو حتى المدن عن وعي أو دون وعي، و لكن الأكيد فان مدينة باتنة قد عرفت كثير من التغيرات و قد قبلت كثير من الأنماط الثقافية التي أبدت من خلالها استعدادا جليا لقبول الأخر ،و هو ما تعكسه الكثير من المظاهر التي تؤكد لا محال بان مفهوم المحافظة أصبح مسالة نسبية.

المسألة التي يمكن تأكيدها من دون تردد هي أن الأسرة الباتنية الامازيغية تحديدا لم تستطع مقاومة التغيير بل أبدت قبولا و انفتاحا، بل وفضولا لارتداء لباس العصرنة حتى وان كان ذلك نسبي لاستمرار بعض الممارسات التي تعكس مدى استمرار وان كان مختلف من حيث الحدة التمسك بالطقوس و الأعراف التي ترتبط بالهوية..

. قائمة المراجع:

-Bourdieu. P (1972), Esquisse d'une théorie de la pratique, librairie Droz.
-Bourdieu .P (1988), Sociologie de l'Algérie, Paris, PUF.
-Foucault M (1976), Il faut défendre la société, Gallimard, seuil.
--Khodja. S. (1991), A comme algériennes, Alger, ENAL
-Levi strauss .claude.(1958), Introduction à l'anthropologie structural, paris .plons

المقالات باللغة العربية

العدد 2 .وهران.CRASC.- بوطمين. ل.(2000)." الإطارات النسوة".دفاتر

- عنصر العياشي.(2008)." أفاق تحول الأسرة في الوطن العربي من الأبوية إلى الشراكة" .مجلة علم الفكر.المجلد 36. العدد 3 يناير – مارس ص ص 218-325.

باللغة الفرنسية

-Adel. K. (1995) . « Femmes de l'Aurès et espace », Actes de l'Atelier femmes et développement. 18-21 Octobre 1994, Edition, CRASC, Oran. Pp 43-48.
-Bensmail. S .(1997)," l'adaptation de l'espace individuel » revue insaniyat,N02 automne. Oran. pp 15-23.
-Bourdieu. P,(1993) , « A propos de la famille comme catégorie réalisée », Actes de la recherche en sciences sociales N° 100,pp, 32-36.
-Bourdieu. P. (1994), « Stratégies de reproduction et modes de domination », actes de recherche en sciences sociales N°104, pp 3- 12.
-Boutamine. L. (2018), « Famille chaouie et interculturalité », Revue Annales du patrimoine, Edition université de Mostaganem, pp 29-43.
-Khodja. S. (1991), A comme algériennes, Alger, ENAL.
-Mernissi. F, (1980), « Le prolétariat féminin au Maroc », Annuaire de l'Afrique du nord.